الكنيسة واستعادة الصورة الغائبة

الدكتور القس يوسف سمير

خطاب حفل تخرج الدفعة 154
لكلية اللاهوت الإنجيلية في القاهرة
الجمعة 30 مايو 2025

الفاضل الدكتور القس أندريا زكي رئيس الطائفة، الفاضل القس موسى أقلاديوس رئيس سنودس النيل الإنجيلي، الأحباء رئيس وأعضاء مجلس الكلية الأعزاء على قلبي، الفاضل الدكتور القس صموئيل رزقي عميد الكلية، أساتذة الكلية وطلابها وموظفيها والعاملين بها، الأعزاء خريجي الدفعة 154 وأسرهم الغالية، الحضور الكريم..

أتقدم إلى جميعكم بالتهنئة القلبية الخالصة بهذه المناسبة الجليلة الغالية على قلوبنا، والتي تذكرنا بعناية الله الفائقة بكنيسته إذ يقيم لها خدامًا يحملون الشعلة ويواصلون الكفاح الشريف لأجل تقدم ملكوت المسيح على أرضنا؛ كما أنها تكرس في وجداننا الجمعي أهمية الإعداد الجيد لروح وعقل ونفسية الخدام –متفرغين كانوا أم غير متفرغين– ليقوموا بالمهمة الملقاة على عاتقهم بأجمل صورة وعلى أكمل وجه.

كما أنني أنتهز هذه الفرصة لأشكر مجلس كلية اللاهوت لمنحي هذا الامتياز لتقديم هذه الرسالة لأحبائي الخريجين والخريجات. ولا يفوتني في مقام كهذا أن أشكر الرب على السنوات الثمانية التي شاركت فيها في خدمة كليتي العزيزة مقدمًا كل التقدير لمجلس الكلية الذي أشهد بضمير صالح أنه لم يألُ صلاة أو جهدًا أو تفكيرًا أو تخطيطًا لما فيه خير الكلية في كل القرارات الحاسمة والمصيرية والتحديات الضخمة والمياه المضطربة التي واجهت سفينة الكلية في السنوات الثمانية المنصرمة.

* * *

منذ ستة وثلاثين عامًا، وبالتحديد في يوم الجمعة الموافق 26 مايو 1989، وفي مناسبة مماثلة شهدت تخرج الدفعة رقم 118 في كلية اللاهوت، وقف طيب الذكر الدكتور القس فايز فارس، الراعي الأسبق للكنيسة الإنجيلية الثانية بالمنيا ليلقي خطابًا تاريخيًّا من على منبر الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة. كان عنوان الخطاب "دعوة إلى إعادة البناء والمكاشفة

في الكنيسة الإنجيلية." وقد ارتكز هذا الخطاب في محتواه وقصده على جوهر الإصلاح الإنجيلي الذي نادى بضرورة إصلاح الكنيسة لنفسها وبنفسها إذا كنت تبغي لنفسها الاستمرار في المناداة الأمينة بإنجيل المسيح والكرازة به ربًّا ومخلصًا للجميع. يقول القس فايز فارس في معرض حديثه عن أهمية الإصلاح في الكنيسة: "إن مسيرة الفكر الإنجيلي لم تكن ولن تكون نقطة ثابتة ساكنة جامدة، بل كانت وستظل دائمًا ديناميكية متحركة... وكل نهضة وتقدم في تاريخ الكنائس المسيحية جاء نتيجة حركات إصلاح وإعادة بناء. إن كلمة الله العاملة بالروح القدس في الكنيسة تجعلها في حركة تجديد مستمرة."[1]

ولا أبالغ إذا قلت إن الكنيسة المصرية إنما تحتاج إلى هذه الدعوة أكثر من أي وقت مضى. وأقول إنني لا أدعو الكنيسة إلى إعادة النظر إلى واقعها من موقع تشاؤمي سلبي التوجه، إنما أفعل ذلك لأن كنيستي الغالية تستحق أن تكون دائمًا حيثما يريدها الله أن تكون. تستحق أن تعيش مسيرة نجاح مستمرة ترفض فيها كل ما يعطلها، وترمي وراء ظهرها كل ما يعيقها، وتتوب في كل لحظة عن كل ما يدنسها ويلوث سمعتها وشهادتها، وأن تكون قادرة على قراءة علامات الأزمنة في وسط واقع يحاول أن يطمس هذه العلامات ويحبط كل محاولة جادة لاستيعابها وفهمها والتعامل معها. والثورة التي تسعى إليها الكنيسة –أو ينبغي أن تسعى إليها– ليست أبدًا ثورة الفوضى التي تهدم ولا تبني، وتقوض ولا تُعمِّر لكنها ثورة ناضجة عاقلة تفكر وتحلل وتتأمل وتعمل بجد وهدوء وروية والتزام واتضاع لكي تبني ما انهدم وتصلح ما انكسر وتحيي ما أو من مات. إنها تجاوب مع النداء الإلهي الذي يطلقه النبي في إشعياء 61: 4 "وَيَبْنُونَ الْخِرَبَ الْقَدِيمَةَ. يُقِيمُونَ الْمُوحِشَاتِ الأُوَلَ. وَيُجَدِّدُونَ الْمُدُنَ الْخَرِبَةَ مُوحِشَاتِ دَوْرٍ فَدَوْرٍ."

ومن هنا يأتي اختيار عنوان هذه الرسالة: "الكنيسة واسترداد الصورة الغائبة." وكلمة "غائبة" مقصودة.. فالصورة ليست مفقودة.. إنها موجودة ولكنها مختفية أو غائبة لأسباب مختلفة.

1. فالصورة ليست مفقودة لأن هنالك أمناء يحملون جذوة الرسالة والخدمة والإرسالية. فالخميرة الصالحة المؤثرة موجودة، حتى وإن كان تأثيرها ضعيفًا أو غير ملموس أو محسوس. هكذا كان الأمر في عصر إيليا الذي فقد الأمل والهمة بسبب طغيان الشر والأشرار وغياب النموذج والقدوة حتى إنه في عمق يأسه طلب الموت لنفسه. لكن صوت الرب وضع الأمور في نصابها عندما قال له: "وَقَدْ أَبْقَيْتُ فِي إِسْرَائِيلَ سَبْعَةَ آلاَفٍ، كُلَّ الرُّكَبِ الَّتِي لَمْ تَجْثُ لِلْبَعْلِ وَكُلَّ

1 . فايز فارس، *دعوة إلى التغيير* (الكنيسة الإنجيلية الثانية بالمنيا، 1990)، 18. (يتضمن هذا الكتاب نص الخطاب المُشار إليه مع مجموعة أخرى من المقالات والتعليقات التي قدمها البعض كرد فعل لهذا الخطاب وكذلك بعض الفصول التي أضافها الكاتب للاستفاضة في شرح بعض القضايا التي وردت في خطابه).

فَمٍ لَمْ يُقَبِّلْهُ." (1ملوك 19: 18). يعبر أنطوان مقدسي عن ذات الفكرة كاتبًا: "لقد برز في مؤسساتنا وجه العالم أكثر مما كان يجب أن يبرز. ولكن كنيستنا في صميمها تحيا، لا بقوة الاستمرار كما يظن الخصم، إنما في نفوس قديسيها، قديسي الماضي وقديسي الحاضر، يصلون ويخدمون، وفي صمت القلب، يعيدون آلام الصليب وموته، آلامًا تنقذ وموتًا يحيي."[2]

2. والصورة ليست مفقودة لأن الكنيسة –كمؤسسة بشرية– معرضة للضعف والتخاذل والتراجع في حياتها الروحية أو في أسلوب أدائها لخدمتها أو في شغفها في القيام بإرساليتها. لكن هكذا واقع لا يعني بالضرورة أن الصورة الجميلة قد ضاعت إلى الأبد أو فُقدت ولا أمل في استرجاعها، لكنه يعني أن الكنيسة يجب –بشجاعة روحية وفطنة– أن تواجه واقعها الضعيف لتتوب عن سقطاتها؛ وعندئذ فقط يمكن للصورة الغائبة أو الباهتة أن تستعيد رونقها ولمعانها.
3. والصورة ليست مفقودة –وهذه هي النقطة الأكثر أهمية– لأن الكنيسة تعيش في كل ظروفها تحت غطاء من النعمة الإلهية، مسيج حولها بسياج من العناية يضمن لها النجاة من أعتى العواصف وأقسى التحديات. فالصورة الجميلة لا تُفقد –ليس بسبب أمانة الكنيسة وجديتها لأن الواقع وطبيعة الكنيسة يقولان غير ذلك– إنما بسبب أمانة إله العهد الذي، في أيام قديمة عُرضت أمامه خطية شعبه الذي زاغ ولم يسلك في رضاه، لكنه في أمانته قرر استردادهم وعلاجهم ووضعهم على الطريق الصحيح مرة أخرى. نقرأ عن هذا الأمر في إرميا 33: 4–8: "أَنَّهُ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ عَنْ بُيُوتِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ وَعَنْ بُيُوتِ مُلُوكِ يَهُوذَا... هَئَنَذَا أَضَعُ عَلَيْهَا رِفَادَةً وَعِلاَجًا وَأَشْفِيهِمْ وَأُعْلِنُ لَهُمْ كَثْرَةَ السَّلاَمِ وَالأَمَانَةِ. وَأَرُدُّ سَبْيَ يَهُوذَا وَسَبْيَ إِسْرَائِيلَ وَأَبْنِيهِمْ كَالأَوَّلِ. وَأُطَهِّرُهُمْ مِنْ كُلِّ إِثْمِهِمِ الَّذِي أَخْطَأُوا بِهِ إِلَيَّ وَأَغْفِرُ كُلَّ ذُنُوبِهِمِ الَّتِي أَخْطَأُوا بِهَا إِلَيَّ وَالَّتِي عَصُوا بِهَا عَلَيَّ." يكتب الأب بولس الفغالي في تفسيره لهذا الجزء الكتابي مؤكدًا نفس الفكرة: "هي الأمور تتبدل وقد أضحى الماضي مع حروبه ودماره كأنه ما كان... فالخطيئة ليست الكلمة الأخيرة، بل الغفران. والقلع والهدم هما في البداية؛ وفي النهاية، يغرس الرب ويعيد البناء."[3]

* * *

2. أنطوان مقدسي، "الكنيسة الشرقية على درب يسوع،" مقالة في كتاب *الكنيسة في العالم: آراء مسيحية في التزام شؤون الأرض*، المطران جورج خضر وآخرون (بيروت: منشورات النور، 1973)، 76-77.

3. بولس الفغالي، "سفر إرميا،" في *التفسير العربي المعاصر للكتاب المقدس*، تحرير: أندريه زكي (القاهرة: دار الثقافة، 2018)، 1364.

أما السؤال الذي يفرض نفسه والذي أحاول الإجابة عليه فيما تبقى من وقت هو: ما هي ملامح الصورة التي أرجو أن تسعى كنيستي الغالية لاستردادها بعد غياب؟ لا شك أن مصدرًا أساسيًّا للإجابة على هذا السؤال سيكون سفر الأعمال. ولا أدعي، ولا يجب علينا أبدًا التصور، أن سفر الأعمال يقدم لنا يوتوبيا روحية عاشتها الكنيسة في بداية العصر المسيحي الأول. فسنوات الكنيسة الأولى امتلأت بالضعفات والمآخذ، والصورة لم تكن أبدًا بالبريق الذي نتوقعه لأن الكنيسة في كل زمان ومكان هي بذاتها تتكون من بشر ضعفاء يعيشون ويحاولون ويخطئون أو يصيبون ويتوبون ويقومون نافضين عن أنفسهم غبار الزلل ووسخ الخطية. إن مجتمع الكنيسة ليس مجتمعًا معقمًا لا تشوبه شائبة الخطية، وهو مجتمع لا يعيش فيه فقط فئة من الناس الكاملين الذين لا يضعفون أو يسقطون أو ينحرفون. إنما مجتمع الكنيسة هو مجتمع يعيش فيه الله مع شعبه الواقع تحت ضغطة الآلام والمعاناة والضعف. وسفر الأعمال يوضح لنا كيف يمكن للجماعة، من خلال قيادة الروح وفي اتكال عميق على عمل النعمة، أن تعيش ملامح الملكوت ومعطياته رغم أنها تعيش في وسط مخالف وثقافة مغايرة وضغوطات معثرة وتحديات لا تنتهي.

ألخص ملامح الصورة الغائبة التي نسعى لاستردادها في النقاط التالية:[4]

(1)صورة الاحتضان الغائبة

صورة الاحتضان والاحتواء والتشجيع واحدة من أهم الصور الشائعة في سفر الأعمال. وهذه الصورة إنما تعبر عن حياة الشركة كقيمة آمنت بها الكنيسة الأولى واجتهدت بمثابرة أن تمارسها. فالشركة في وسط جماعة الرب المفدية لا تُترجم فقط في تناول الطعام معًا، أو توفير الاحتياجات المادية لمن يعانون شظف العيش، فالأمر يتعدى ذلك إلى إعطاء الفرصة لمن يحتاجون إليها، وتشجيع المبتدئ إلى أن يتقوى، وقبول المخطئ عندما يبدي تغييرًا وتوبة ورجوعًا إلى جادة الصواب. عبر البشير لوقا نفسه في إنجيله عن صورة الاحتضان في واحد من أشهر الأمثال التي نطق بها المعلم في الإنجيل ألا وهو مثل الابن الضال حيث يصف موقف الأب عند رؤيته لابنه من بعيد فيقول: "وَإِذْ كَانَ لَمْ يَزَلْ بَعِيدًا رَآهُ أَبُوهُ، فَتَحَنَّنَ وَرَكَضَ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ" (لوقا 15: 20). وتتكرر هذه الصورة في أكثر من موقف وبأكثر من أسلوب طوال سفر الأعمال.

4 . لا شك أن هنالك مكونات أخرى لهذه الصورة الغائبة إلا أنني أكتفي بالنقاط المذكورة أولًا لمحدودية الوقت كما لأنني أرى أن هذه هي النقاط الأهم في وجهة نظري.

تتجلى صورة الاحتضان بصورة خاصة في شخصية برنابا، ابن الوعظ أو التشجيع كما يصفه كاتب السفر (أعمال 4: 36). فبرنابا لعب الدور الأساسي والأهم في إذابة الجليد بين شاول الطرسوسي الذي خلص على طريق دمشق وزمرة التلاميذ الذين كانوا مرتابين فيه ومنزعجين من وجوده في وسطهم. نرى برنابا بقلبه الواسع الذي احتضن ذلك المتشدد السابق ليزرعه بروح كريمة في وسط جماعة الرب: "فَأَخَذَهُ بَرْنَابَا وَأَحْضَرَهُ إِلَى الرُّسُلِ، وَحَدَّثَهُمْ كَيْفَ أَبْصَرَ الرَّبَّ فِي الطَّرِيقِ وَأَنَّهُ كَلَّمَهُ، وَكَيْفَ جَاهَرَ فِي دِمَشْقَ بِاسْمِ يَسُوعَ" (أعمال 9: 27). وكان برنابا هو الشخص الذي ارتأت الكنيسة –بسبب روحه المشجعة– أن ترسله إلى الكنائس الناشئة في انطاكية ليشجعها ويدعمها "الذي لما أتى ورأى نعمة الله فرح، ووعظ (شجع) الجميع أن يثبتوا في الرب بعزم القلب" (أعمال 11: 23)، كذلك كان هو من ذهب باحثًا عن شاول في طرسوس ليشجعه "ولما وجده جاء به إلى أنطاكية" (أعمال 11: 25). ولم يقتصر الأمر على بولس، لكن برنابا احتضن يوحنا مرقس الذي رفض بولس أن يكون عضوًا في الرحلة الثانية، فكان أن اختار برنابا الانحياز لمن يحتاج الاحتواء والتشجيع.

ولا شك أن ما لقيه بولس من تشجيع واحتواء من جهة برنابا قد حفر في نفسه درسًا ونموذجًا لكيف يجب أن يكون القلب الكبير الذي يتسع لكثيرين فيهتم ويوجه ويدفع إلى الأمام ويترفق ويغفر ويلتمس العذر ويضع آخرين على طريق النجاح ويستثمر في من هم أقل خبرة واختبارًا. تعلم بولس الدرس وأفسح المجال في قلبه ومن حوله لتلاميذه ورفقائه المقربين الذين بلغ عددهم حوالي 16 شخصًا كما يذكر لنا العهد الجديد.[5]

إن قيمة التشجيع والاحتضان والاحتواء إنما تعبر بصورة أساسية لا لبس فيها عن تمتع الكنيسة بروح المحبة الحقيقية، التي هي العنوان الأساسي لكنيسة المسيح. إن قائمة من صفات المحبة التي يذكرها الرسول في نشيده الأشهر في 1كورنثوس 13 هي أنها: "تحتمل كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء،" وهي التي يمكننا اعتبارها آية "الاحتضان!" فهي تصور ديناميكية التعامل مع ضعفات الآخرين من خلال الروح الإيجابية المشجعة والمحتضنة التي "تحتمل كل شيء" أي أنها (تغطي) ضعفات الآخرين وتغفرها، و"تصدق كل شيء" أي أنها (ترى الأفضل في الآخر)، و"ترجو كل شيء" بمعنى أنها لا تعتبر الفشل هو الكلمة الأخيرة لكنها (تؤمن بأن الآتي أفضل) وأنجح وأكثر لمعانًا، و"تصبر على كل شيء" أي أنها (تعطي الفرصة) وتوفر المساحة والإمكانية والوقت للآخر حتى يتعلم ويتدرب

5 . شكر خاص للشيخ يوسف ناثان مدير قسم الأبحاث والدراسات الكتابية بدار الكتاب المقدس بمصر لتوفير هذه المعلومة.

ويخرج من كبوته. يقول شارل ده فوكوه: "أن نحب يعني أن نأمل دائمًا في الفرد الذي نحبه... علينا أن نتوقع كل شيء من كل فرد. علينا أن نتحلى بالشجاعة الكافية لنكون حبًّا في عالم لا يعرف كيف يحب".[6]

وفي رأيي أن هنالك على الأقل عائقين يقفان سدًّا منيعًا أمام استعادة الكنيسة لروح التشجيع والاحتضان:

1. هنالك أولًا، وقبل أي وكل شيء، الشعور الجارف والمتأصل بالتهديد. يمكن القول بأن الشعور بعدم الأمان الداخلي إنما يمثل العائق الحقيقي وراء غياب روح التشجيع عن الكنيسة المحلية والعامة بصورة واضحة. فالقائد أو المسؤول الذي يفتقر إلى الأمان الداخلي سيكون مؤَرقًا دائمًا من وجود آخرين حوله. وإذا فرض عليه آخرون فإنه لن يألو جهدًا في التخلص منهم بكل طريقة، أو أنه سيمنع عنهم كل مشورة وتدريب وفرصة للتطور والتقدم. لقد أصيبت الكنيسة المحلية بالمركزية الشديدة في أسلوب إدارتها بسبب الخوف من ظهور كوادر جديدة ربما تسحب البساط من الأجيال الحالية، وللأسف الشديد، لا تؤدي المركزية المطلقة إلا إلى المزيد من الضعف والهزال والهشاشة وانعدام التأثير.
2. التحدي الثاني الذي تواجهه الكنيسة فيما يتعلق بتوجه الاحتواء والتشجيع في أروقتها إنما هو الرغبة في الاستئثار بالنجاح. إن الوجود في وسط بؤرة الأضواء يمثل تجربة لا يُستهان بها بالنسبة لأي خادم من خدام المسيح. والرغبة في أن يُنسب النجاح والتأثير لشخص بعينه مدخل لإبقاء الخيوط في يد واحدة تطبق على زمام الأمور إطباقًا خانقًا لكل تجديد وتطوير. وإن كان سفر الأعمال قد سجل لنا العديد من الضعفات والأخطار والخطايا التي واجهتها الكنيسة الوليدة في العصر المسيحي الأول، إلا أننا لا نجد أثرًا لفكرة الرغبة في الاستحواذ على النجاح والانفراد به. فبرنابا، ابن الوعظ، ارتضى لنفسه المكان الثاني والبقاء في الظل ليدفع أمامه المؤمن الجديد الواعد شاول الطرسوسي؛ والرسول بولس –كما ذكرنا قبلًا– أفسح المجال لكثيرين ممن حوله للخدمة والنجاح والتأثير بفاعلية على المستوى العام.

(2) صورة الاستقامة الغائبة

6. مقتبس من بيتر ج. فان بريمن اليسوعي، *كالخبز الذي كُسر*، ترجمة رفيق حبيب نصري اليسوعي (جونية، لبنان: المطبعة البولسية، 2003)، 109.

يقدم لنا سفر الأعمال في الإصحاح الخامس واحدة من القصص الصادمة التي تناولتها أقلام المفسرين وتحليلات علماء العهد الجديد بالدراسة والتمحيص استجلاء لمعانيها والهدف من ورائها. إن صعوبة قصة حنانيا وسفيرة (أعمال 5: 1–11) والحسم الشديد في الحكم على الزوجين أديا ببعض المفسرين إلى التقليل من القيمة التاريخية لهذه القصة والادعاء بأنها غير منطقية وغير مستساغة لاهوتيًّا، وبالتالي رفضوا التعليق عليها أو دراستها أو التعليم بها.[7] بالتأكيد ليس المقام مناسبًا لدراسة الحادثة بكل تفصيلاتها وسياقاتها، لكن ما يهمنا بالتحديد هو الإجابة على السؤال الهام الذي يطرحه النص الكتابي: لماذا يبدو الحكم على الرجل وزوجته مغالى فيه ويحمل الكثير من القسوة؟ هل يتناسب الحكم بموتهما الفوري مع الخطية التي اقترفاها؟ هل تتناسب هذه القصة مع توجه العهد الجديد الذي يدشن بغنى زمان النعمة والمغفرة الإلهيين؟ أَوَلا يبدو تصرف الرسول بطرس معهما غير متماشٍ مع ما اختبره هو بنفسه من غفران ورحمة عندما أنكر السيد في ليلة الصليب؟ أما كان يجب أن يجزل لهما العفو كما اختبره هو قبلًا؟

الإجابة البسيطة المباشرة والعفوية عن كل هذه الأسئلة المشروعة تكمن في الآية الأخيرة من النص في العدد 11 حيث نقرأ: "فَصَارَ خَوْفٌ عَظِيمٌ عَلَى جَمِيعِ الْكَنِيسَةِ وَعَلَى جَمِيعِ الَّذِينَ سَمِعُوا بِذَلِكَ." فالقصد المباشر من وجود هذه القصة هو الإعلان الواضح الذي لا يخطئه أحد عن ضرورة الحياة المستقيمة في مجتمع الملكوت. فإذا كان كاتب السفر في النصوص السابقة (أعمال 4: 1–31) واللاحقة (أعمال 5: 17–42) يتحدث عن المخاطر الخارجية التي هددت الكنيسة بسبب الاضطهاد اليهودي، فإنه بحكمة إلهية يبين كيف أن الكنيسة تواجه من داخلها خطرًا –ربما يكون أكبر وأكثر عنفًا وأوسع تأثيرًا– هو خطر الحياة المزدوجة التي فيها يسعى حنانيا وسفيرة إلى الإمساك بطرفي المعادلة: طرف الغنى والمتعة المادية من جهة، ومن الجهة الأخرى طرف السمعة الروحية الجيدة التي تجعل لهما وجودًا واسمًا في داخل جماعة الرب. لكنهما للأسف لا ينجحان في ذلك إلا بأسلوب غير مستقيم يستخدمان فيه الرياء– أو حيلة العيش بوجهين. إن رسالة هذا النص أيها الأحباء هي باختصار أن العيش في رحاب العهد الجديد لا يعني أبدًا أن يتبنى المرء نوعية متساهلة ومترهلة من الحياة التي تفتقر إلى الاستقامة الروحية والنزاهة الأخلاقية. فالخلاص الذي يناله شعب الرب بموت المسيح وقيامته يجب أن يتمم –كما يكتب الرسول بولس– بخوف ورعدة.

7. Anthony B. Robinson and Robert W. Waal, *Called to be Church: The Book of Acts for a New Day* (Grand Rapids, MI: William B. Eerdmans Publishing Company, 2006), 75.

لا ريب أن واحدًا من أكبر المساحات التي انتشرت فيها، ومن خلالها، وبسببها التوجهات التي تتَّسم بعدم الاستقامة هي مساحة منصات التواصل الرقمي الاجتماعي بكل أوجهها المختلفة، وخاصة وسائل التواصل الاجتماعي ومنصات المحتوى المرئي ومنصات الدردشة والتراسل الفوري. تحمل هذه المنصات الكثير من الوجوه الإيجابية المفيدة للإنسان، لكنها في نفس الوقت –وبسبب سوء الاستخدام الذي يقف وراءه الفساد الإنساني– أصبحت أسلحة مسنونة لتدمير الشخصية وتشويه السمعة والتطاول على الآخر واستباحة الإساءات اللفظية والتعدي على كل خطوط الحريات الشخصية. وتصير المصيبة أعظم عندما يتم تطويع هذا السلاح الدامي في مدارات الخدمة الكنسية والعلاقات بين أبناء الكنيسة الواحدة أو الكنائس المختلفة.

في الكثير من النصوص الكتابية نجد التأكيد الواضح على قيمة الإنسان والإنسانية والدعوة لعدم استغلاله. يقول المرنم في المزمور الثامن: "فَمَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ وَابْنُ آدَمَ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ! وَتَنْقُصَهُ قَلِيلًا عَنِ الْمَلاَئِكَةِ وَبِمَجْدٍ وَبَهَاءٍ تُكَلِّلُهُ. تُسَلِّطُهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. جَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ" (مزمور 8: 4–6). ويشير اللاهوتي السويسري الشهير كارل بارت إلى ثلاثة مسوغات لهذه الكرامة الإنسانية وهي: كرامة الخلق الإلهي للإنسان (بحسب مزمور 8)، وكرامة الفداء بموت المسيح لأجل الإنسان (رومية 14: 15؛ 1كورنثوس 8: 11)، وكرامة خدمة الإنسان لله (يوحنا 12: 26؛ 2كورنثوس 3: 9).[8] وللأسف ضاعت كل هذه المعاني الكتابية واللاهوتية الجميلة السامية على مذابح وسائل التواصل الاجتماعي التي أوصلت الإخوة إلى حالة مؤسفة من التراشق بالألفاظ والتخوين الفكري والتكفير اللاهوتي والمزايدات السقيمة، وأصبحت الكرامة الإنسانية مداسًا تحت أقدام الرغبة في الظهور والتشفي والانتقام والتشويه. وأصبحنا ندافع عن الكتاب المقدس الذي يدعونا إلى احترام الآخر ومحبته وصون كرامته– أقول إننا أصبحنا ندافع عنه بإهانة الآخر وتكفيره والحط من شأنه والنيل من سمعته... فوأسفاه على هكذا واقع...

واحدة من الملاحظات التي من شأنها أن تدعونا للقلق والخوف والحذر هي تلك التي يذكرها اللاهوتي السويسري هانز كونج إذ يشير إلى أنه من الشائع أن يقدم الإعلام والأفلام السينمائية الكنيسة على كونها "مكانًا للشر."[9] وأكثر ما يؤرق في هذه الحقيقة هو وجود ذلك التناقض الصادم بين هوية الكنيسة الأصلية والأصيلة كشعب المسيح المفدي من جهة،

8. Klaus Bockmuehl, *Evangelicals and Social Ethics* (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 1979), 24.

9. Quoted in Wim A. Dreyer, "Church, Mission and Ethics: Being Church with Integrity," *HTS Teologiese Studies, Theological Studies*. Vol. 72, no. 1 (February 2016): 1.

ومن الجهة الأخرى وجود الشر في داخلها والإبقاء على سُمِّه بين جدرانها وقدرتها على التعايش معه في ازدواجية مؤلمة ورياء صارخ. إنه نفس المرض الذي واجه الرب شعبه بسببه لأكثر من مرة في القديم حيث يقول موبخًا إياهم على لسان عاموس النبي "بَغَضْتُ كَرِهْتُ أَعْيَادَكُمْ وَلَسْتُ أَلْتَذُّ بِاعْتِكَافَاتِكُمْ. إِنِّي إِذَا قَدَّمْتُمْ لِي مُحْرَقَاتِكُمْ وَتَقْدِمَاتِكُمْ لاَ أَرْتَضِي وَذَبَائِحَ السَّلاَمَةِ مِنْ مُسَمَّنَاتِكُمْ لاَ أَلْتَفِتُ إِلَيْهَا. أَبْعِدْ عَنِّي ضَجَّةَ أَغَانِيكَ وَنَغْمَةَ رَبَابِكَ لاَ أَسْمَعُ. وَلْيَجْرِ الْحَقُّ كَالْمِيَاهِ وَالْبِرُّ كَنَهْرٍ دَائِمٍ" (عاموس 5: 21–24). إنه ذلك "الخليط من التدين وفعل الشر والظلم"، بحسب تعبير جون ستوت.[10] وهي الحالة المزرية التي يصفها جورج فرفر بامتياز حيث يكتب: "واقعنا اليوم هو أننا لا ننجب قديسين. كل ما في الأمر، نحن نقوم بهداية الناس إلى مسيحية واهنة عقيمة لا تشبه مسيحية العهد الجديد إلا قليلًا. فما المؤمن الكتابي العادي في أيامنا إلا صورة مضحكة للقداسة الصحيحة."[11]

من الأمور المحزنة والتي تكسر قلوبنا جميعًا أن تفقد الكنيسة شهادتها وتضعف رسالتها ويخبو نورها وتفسد ملوحتها بسبب السقوط في واحد أو أكثر من الثالوث المريع: المال والسلطة– وبصورة خاصة– الجنس. إننا نحتاج كقادة وقسوس وخدام وشعب أن نحسن الاستماع إلى تحذير الرسول ووصيته للكنيسة: "فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ هَذَا أَنَّ كُلَّ زَانٍ أَوْ نَجِسٍ أَوْ طَمَّاعٍ، الَّذِي هُوَ عَابِدٌ لِلأَوْثَانِ لَيْسَ لَهُ مِيرَاثٌ فِي مَلَكُوتِ الْمَسِيحِ وَاللهِ. لاَ يَغُرَّكُمْ أَحَدٌ بِكَلاَمٍ بَاطِلٍ، لأَنَّهُ بِسَبَبِ هَذِهِ الأُمُورِ يَأْتِي غَضَبُ اللهِ عَلَى أَبْنَاءِ الْمَعْصِيَةِ. فَلاَ تَكُونُوا شُرَكَاءَهُمْ. لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ قَبْلًا ظُلْمَةً وَأَمَّا الآنَ فَنُورٌ فِي الرَّبِّ. اسْلُكُوا كَأَوْلاَدِ نُورٍ." (أفسس 5: 5–8). وليتنا نصغي في اتضاع لكلمات خادم مثلنا يقول: "إن إرضاء الإنسان له ثمن وهذا الثمن يؤدي إلى فقدان النزاهة، وإرضاء الله أيضًا له ثمن، التمسك والتشبث بالنزاهة وحياة الاستقامة. فماذا تختار؟"[12] نعم، فحياة تفتقد للنزاهة والاستقامة إنما هي خسارة في خسارة. أما إذا أردنا التأثير المُملّح والقدوة المضيئة والسيرة الحسنة والشجاعة في الخدمة والجسارة في الشهادة والتمتع بالضمير الصالح فالطريق الواحد والوحيد هو حياة الاستقامة.

(3) صورة الفاعلية الغائبة

10. جون ستوت، *الكنيسة: الهروب إلى الله أم من الله؟* ترجمة: حمدي سعد (القاهرة: دار الثقافة، 2011)، 46.

11. جورج فرفر، *ثورة على الازدواجية*، تعريب: يوسف قسطة (بيروت، لبنان: دار منشورات النفير، ب.ت)، 7.

12. إيلي الخراط، *الطريق إلى القيادة* (إنسباير للنشر والتوزيع- الإنترفارسيتي IFES، 2023)، 85.

نعود إلى سفر الأعمال لنلاحظ أن النقطة المركزية التي يدور حولها هذا السفر في مجمله إنما هي تقدم الكرازة وبناء الكنيسة الروحي. ونلاحظ مرة وراء الأخرى أن كل الأنشطة والقرارات والمواهب والقدرات والإمكانيات تمحورت حول هذا الهدف الأسمى. منذ استهلال السفر نرى أن وصية يسوع المقام كانت بصورة واضحة لتلاميذه أنكم "سَتَنَالُونَ قُوَّةً مَتَى حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْكُمْ وَتَكُونُونَ لِي شُهُودًا فِي أُورُشَلِيمَ وَفِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّامِرَةِ وَإِلَى أَقْصَى الأَرْضِ." لقد كانت الإرسالية هي الحاكمة لكل نشاطٍ قام به التلاميذ والرسل الأوائل. كانت كل الصلوات والأصوام والفرص التعبدية والرحلات التبشيرية والاجتماعات الكنسية والرسائل الرعوية والتشتتات بسبب الاضطهاد والاضطرابات بسبب المضايقات، بل وأقول حتى الاختلافات التي حدثت بين القادة، كلها كان مركزها الإرسالية وبناء الكنيسة روحيًّا. لذلك لم يَزَل كاتب السفر يورد من وقت إلى آخر تقريرًا موجزًا لتقدم الخدمة بسبب ما يقوم به التلاميذ والرسل، بتركيز شديد، لإنجاح الرسالة. فنحن نقرأ في أماكن معينة من السفر ملاحظات على شاكلة: "فَكَانَتِ الْكَنَائِسُ تَتَشَدَّدُ فِي الإِيمَانِ وَتَزْدَادُ فِي الْعَدَدِ كُلَّ يَوْمٍ." (أعمال 16: 5).[13]

عندما حدثت أزمة الإغفال عن الأرامل اليونانيات في خدمة العطاء (أعمال 6)، كان المبدأ الذي أرساه الرسل هو: "لاَ يُرْضِي أَنْ نَتْرُكَ نَحْنُ كَلِمَةَ اللهِ وَنَخْدِمَ مَوَائِدَ. فَانْتَخِبُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ سَبْعَةَ رِجَالٍ مِنْكُمْ مَشْهُودًا لَهُمْ وَمَمْلُوِّينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ وَحِكْمَةٍ فَنُقِيمَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَاجَةِ. وَأَمَّا نَحْنُ فَنُواظِبُ عَلَى الصَّلاَةِ وَخِدْمَةِ الْكَلِمَةِ" (أعمال 6: 2–4). وحتى عندما أقيم الشمامسة السبعة، كان الشغف الذي يملأ قلبهم هو امتداد الرسالة والكرازة للبعيدين. وهذا ما رأيناه جليًّا في استفانوس، أشهر الشمامسة وأول الشهداء.

وهذا ما أقصده في هذه النقطة من خطابي تحديدًا: أن العمل الروحي في الكنيسة الأولى كان يتقدم بسرعة وكفاءة وإيجابية وإنجازًا في التأثير لأن كل الأمور الأخرى كانت مُسخَّرةً لإتمام العمل، وليس لتعطيله. وأقول بكل أسف إن العمل الإداري، الذي من المفترض أن يكون داعمًا للمهمة الأساسية للكنيسة، يمثل إلى حد كبير عائقًا أمام إتمام هذه المهمة بالصورة المرضية والمشبعة لقلب الله. لقد تعطلت الفاعلية المطلوبة في إنجاز الخطط والأحلام والرؤى بسبب الانشغال الزائد عن الحد في دهاليز العمل الإداري الذي أثقل الخطى وعطل الانطلاق في اتجاهات مختلفة. أستعير هنا ما كتبه اثنان من

13. انظر هذه الشواهد التي تحتوي على ملخصات مماثلة بطول السفر (أعمال 6: 7؛ 9: 31؛ 12: 24؛ 19: 20؛ 28: 31). بحسب سي. إتش. تورنر C. H. Turner، يمكن تقسيم سفر الأعمال إلى ستة أقسام رئيسية ينتهي كل قسم بواحد من التقارير السابقة التي تؤكد تقدم الخدمة بسبب مثابرة الرسل وتركيزهم على مهمتهم الرئيسية.
وليم باركلي، *سفر أعمال الرسل*، سلسلة تفسير العهد الجديد، مجلد 3، ترجمة جوزيف صابر (القاهرة: دار الثقافة، 1991)، 22.

أبناء الكنيسة الإنجيلية في مصر عما وصل إليه العمل الإداري في الكنيسة: "صارت المواقع الإدارية هدفًا في حد ذاتها أكثر منها مواقع خدمة هدف ورسالة الكنيسة... يبدو أنها صارت هدفًا في حد ذاتها عند البعض أو فرصة للرجوع للقديم عند البعض الآخر بدلًا من التحرك لإعادة تحديد أهداف الكنيسة وتجديد رسالتها".[14] وعلى الكنيسة أن تعيد النظر في فاعلية الإدارة بها، لا لكي تتخلى عنها– فهذا غير منطقي بأية صورة، لكن لكي تعيد صياغتها بحيث تكون في خدمة الهدف وليس العكس.

وفيما يلي أحاول وضع بعض المبادئ السريعة والعامة التي ربما تكون ذا فائدة في تفكيرنا بشأن العمل الإداري سواء على المستوى العام أو مستوى الكنيسة المحلية:

1. المبدأ الأهم هو ما قرَّره الرب يسوع عندما قال: "السَّبْتُ إِنَّمَا جُعِلَ لأَجْلِ الإِنْسَانِ لاَ الإِنْسَانُ لأَجْلِ السَّبْتِ". فالنظام الإداري في الكنيسة، بكل لوائحه وتنظيماته ولجانه ومجالسه واجتماعاته، يجب أن يكون هدفه الأول والأهم هو الإنسان. فعلى سبيل المثال، لننظر إلى لوائح الخدمة في كنائسنا وهيئاتنا الكنسية والمجمعية والسنودسية: هل هدفها هو خدمة البشر؟ هل تهدف إلى تسهيل أمور الخدمة أم تعقيدها؟ هل تراعي الظروف الإنسانية أم تغفل عنها في مقابل النظام الشكلي؟
2. المبدأ الثاني هو مبدأ "الزقاق" الذي أرساه كذلك الرب يسوع عندما قال: "وَلَيْسَ أَحَدٌ يَجْعَلُ خَمْرًا جَدِيدَةً فِي زِقَاقٍ عَتِيقَةٍ لِئَلاَّ تَشُقَّ الْخَمْرُ الْجَدِيدَةُ الزِّقَاقَ فَالْخَمْرُ تَنْصَبُّ وَالزِّقَاقُ تَتْلَفُ. بَلْ يَجْعَلُونَ خَمْرًا جَدِيدَةً فِي زِقَاقٍ جَدِيدَةٍ." فالسؤال هو: هل أنظمتنا الإدارية –مع كل تعقيداتها ومستوياتها المتعددة والمتشابكة– قادرة على استيعاب الأفكار الجديدة وأحلام الخدمة الجريئة والخطط الطموحة، أم أنها للأسف تمثل القبر الذي تُدفن فيه هذه الأفكار للأبد؟ انتبهت لهذه المأساة عندما قال لي أحد أصدقائي إن السؤال الذي تطرحه الكنيسة عندما تُعرض عليها فكرة جديدة أو حلم ثوري هو: WHY YES? وليس WHY NOT?. علينا أن ننقي نظامنا الإداري من كل ما من شأنه أن يعطل العمل الأساسي ليكون قادرًا على مخاطبة روح العصر.

14. إميل زكي وڤنيس نقولا، *الكنيسة الإنجيلية المشيخية في مصر: البدايات والتفاعل والتطور* (القاهرة: دار الثقافة، 2015)، 316.

3. المبدأ الثالث هو "افتداء الوقت." إن وصية "مفتدين الوقت لأن الأيام شريرة" إنما تخاطب بقوة رؤيتنا لقيمة الوقت في الخدمة. فالكثير من الرؤى والأحلام تُنسى وتدفن تحت رمال الأوقات المطولة التي نستنزفها في اجتماعات اللجان والمجالس المختلفة. الكثير من المشروعات الواعدة تبقى تحت رحمة المناقشات التي قد تستمر لسنوات دون التقدم ولو لخطوة واحدة إلى الأمام.

4. المبدأ الرابع والأخير هو "البساطة." والمقصود بالبساطة هنا هو أن يكون الهيكل الإداري الذي يحكم العمل والأداء بسيطًا إلى أقصى حد وخاليًا من الطبقات المختلفة والمستويات المتعددة؛ لأن هذا الأمر يؤدي دون شك إلى الترهل في الأداء والإنجاز. يكتب القس عيد صلاح موضحًا هذه النقطة: "الإدارة الجماعية بركة كبيرة، ولكن اتساع العمل الإداري... جعلنا نعاني هذه الحالة من الترهل، ففقدنا البديهيات في الإدارة... وبالتالي معيار الإنجاز مقارنة بمعيار الوقت مع الإمكانيات والفرص المتاحة أصبح ضعيفًا جدًّا."[15] لم تملك الكنيسة الأولى تلك النوعية من النظام الإداري المتشابك، وقد أدى ذلك إلى الخفة في الحركة والسرعة في الإنجاز إلى درجة وصول الرسالة إلى "أقصى الأرض" رغم ضعف الإمكانيات وبطء وسائل المواصلات وقسوة الظروف المناخية وعدم ملاءمة الأحوال الاجتماعية والسياسية.

أستعير في نهاية هذه النقطة ما كتبه رئيس طائفتنا الأسبق الدكتور القس صموئيل حبيب في كتابه عن الإدارة الكنسية: "فإن كانت المهمة مرتبطة بتحقيق الأهداف العليا، وإن كان الإداريون يعملون لصالح صاحب العمل ((الرب يسوع))، وإن كان دور الإداريين هو تحريك السفينة في الاتجاه الذي يحقق آمال السيد في مجتمع هذا العالم، وإن كانت آمال السيد في العالم هي تكميل القديسين، وبناء جسد المسيح حتى مجيء السيد المسيح ثانية، فإن المهمة الإدارية، مرتبطة بهذه الأهداف السامية جدًّا، تصبح مهمة دقيقة وحساسة وخطرة جدًّا."[16]

ختامًا، يقوم إيماننا المصلح على فكرة التجديد– Restoration. إنه "أسلوب تفكير وأسلوب حياة ناهضة نامية باضطراد منتظم، كتيار يتغلغل في حياة الفرد والكنيسة."[17] لذلك، فالدعوة التي تثقلت بها في هذه الرسالة هي نداء لكنيستي

15. عيد صلاح، *نحو دستور جديد للكنيسة الإنجيلية المشيخية بمصر: مبادئ وقضايا* (مجلس الشئون الدستورية والقانونية والقضائية، 2015)، 258.

16. صموئيل حبيب، *الإدارة الكنسية* (القاهرة: دار الثقافة، 1988)، 45.

17. مكرم نجيب، *الروحانية: الجذور والثمار* (القاهرة: دار الثقافة، 1997)، 64.

الغالية أن لا تتوقف عن إصلاح نفسها، مستعيدة الصورة التي غابت حينًا أو أحيانًا لكنها لابد عائدة مرة أخرى من خلال السعي الجاد نحوها. وما يدعم هذه الرحلة نحو الإصلاح أننا نحتضن قيمة الرجاء الذي تفجرت أنواره بقيامة يسوع المسيح من الأموات: فنحن لا نفقد الرجاء في إلهنا أو في أنفسنا، ونحن لا نترك أنفسنا فريسة ليأس يقتل دعوتنا ويدمر خدمتنا، ونحن لا نستسلم لفشل في الماضي يشل حركتنا المتوثبة نحو المستقبل، ونحن لا نرضى أن نبقى مستريحين لواقع ضعيف ووضع هزيل. كلا وألف كلا؛ فنحن نشكر الله الذي يقودنا في موكب نصرته في المسيح كل حين، إننا أبناء القيامة، ولا نرضى إلا بأن نعيش حياة القيامة والانتصار والتجدد والانطلاق الإيجابي إلى الأمام. فإلى الأمام أيها الخريجون، وإلى الأمام أيها الزملاء الأعزاء، وإلى الأمام أيتها الكنيسة الغالية.

شكرًا لحسن الإصغاء.. وكل عام وحضراتكم بكل الخير..